الشعر وعلاقته بالتسامي بالروح الإنسانية

بقلم الدكتور ميشال سليمان

الشعر ليس عمودا من أعمدة بعلبك الستة الضخام . الصخور الخالدة التي لا تختلج بالرعشة المحببة ، لا تعرف الموت . فهي ليست رمزا ايجابيا للحياة . الشعر اذن لا يحمل معنى الخلود ، بالصيغة الجامدة ، انه يشكل وجها من قوة الحركة المجسمة في صورها ظواهر الزمان ، موقظة في الانسان العواطف النبيلة ، متعهدة فيه شخصية متجانسة قادرة على التمييز بين الجميل والقبيح ، قدرتها على حب الحياة وتعميقه باستمرار .

الشاعر منذ ما كان ، عمل على خلق الصور لتحريك الزمان . وكلما ابدع في الخلق ،كان الصق بالروح الانسانية يتعهدها ضمن شروط اجتماعية وتاريخية محسوسة ، مؤكدا باستمرار ان الكائن بوصفه عملا ، وبوصفه خلقا ، هدفه التطور المستمر للخلال الانسانية ، وفق الحتمية الاجتماعية وما يستنبطن من تشوّف خلاق .

فمنذ البدء سار الشعر في هذا المسار الضارب صعدا في عالم الانسان ، وعالم الفن ، هادفا الى « ايجاد الانسان الجميل والقوي » (١) ، ومؤكدا ان الثورة هي التي تزوده بالقوة ، والفن ، والجمال . بهذا المعنى كان الشعر ثورة في عالم الانسان ، قلت الزمان الاول للانسان ، ثورة جعلت الانسان يحس كان هذا الوجود بدأ ينوجه فيه ، كمثل شيء يخصه ، لا بصفة أفكار ذاتية ، بل بوصفها ملكا لطبعه ولحواسه .

ان الاحساس بالوجود ، من اجل معرفته ، ومن اجل تجاوز المرئي والمالوف من تخومه ، هو الذي جعل الشاعر : البحار ، والمعدّن ، ورجل المختبر ، الذي تبرّح به دائما ، رغبته الرؤية الجديدة، ودوافع تفصيل حدود الانسان الجديدة ، كما يقلقه ، بشكل دائم ايضا ، حبه في ان يصبح سيد مصيره ، وسيد انخطافه . فهو من خلال تعمقه بمعرفة وجه الوجود الانساني والمأساوي ، يضرب معاول احساسه في المجهول ، ويقدم للناس ما استخرج وجمع من افكارهم وكلماتهم المالوفة وغير المالوفة . وهو من خلال جهده هذا ، لاقامة الطباق بين الانسان وبين العالم ، يرسي قواعد جسر تساميه بالروح الانسانية ، من اجل ايجاد الانسان البطل الذي يحلم بفتح ثغرة في طبيعة الامر الواقع ، بغية تبديل المجتمع وتحسينه (٢) .

(١) ريتشارد واغنر : الفن والثورة ١٨٩٨ ، صفحة ٨٠ .
(٢) هيغل : دروس في علم الجمال .

وعندما نقول : الشعر وعلاقته بالتسامي بالروح الانسانية ، يتبادر الى الذهن ، أول ما يتبادر ، الانسان في همومه ، وفي مشاغله، وما يتصل بهما من عوامل تبعث الحياة الروحية في الفرد وفي المجتمع على السواء .

فالشعر الحق هو الذي لا يخاف من المواجهة . وليس له الحق ايضا في الانكفاء عن مواجهة هذه الهموم الوجودية اليومية والمصيرية معا . وهو المفطور على الوثوق بقوى الانسان ، والا اصبح شعرا قاحلا ، عاجزا عن تتبع خطى الانسان ، ورسم صوره على لوحات الزمان ، التي هي سجله ومدار مثاله الجمالي .

الشعر هو الزمان لا شعر خارج الزمان . زمننا هذا ، بخاصة ، هو زمن الانسان العملاق : الثائر ، المناضل ، الباني ، الخالق ، محتل القمر ، فضاح الغيوب . والشعر ليس بمعزل عن هذا التحول العصري العظيم . فهو وثيق الارتباط به ، بهذا الانسان ، باعتصامه بالارض ، وبانطلاقه منها الى عوالم أخرى . الارتباط بالارض هو الذي يخلق جذور النضج الكوني للشعر الحديث .

الانسان والزمان ، الانسان والتاريخ ، الانسان والمجتمع ، الانسان والتجاوز الكاشف ، تلكم هي المعاني السامية للشعر اليوم .

وعندما نقول هذا ، فنحن نعني بالضرورة ، ان الشعر انما يشكل ، بحد ذاته ، حلبة صراع مترامية الاطراف ، وصوتا جهوريا يخاطب اللحظات الكبرى في عمر الانسان ، اي انه يتركز حول الانسان من خلال علاقاته بالعالم وبالزمان . ومن هنا جمالية هذا الشعر الخاصة ، النابعة من التوفيق بين العام والخاص ، ومحاولة فهمهما ، من خلال وحدتهما ، ورؤية المصدر والهدف ، عبر التوصل الى معرفة ان المدى الزمني كفّ عن ان يكون خواء سديميا ، لكي يصبح الكون بأسره .

الزمان في الشعر ، ليس الزمان المعروف تقليديا (٣) ، وانما هو بصفة كونه مقولة فلسفية : لحظات متلاحقة متصلة ، تتحلل في العمل، ولا تعرف الموت . وهي شباب دائم ينبع من ايقاع الحياة الذي لا يعرف الموت سوى انه تحول (٤) ، يصبح فيه الزمان وجها لنظام العالم

(٣) الزمان هنا ليس مقياسا .. كما يقول رينر ماريا ريلكه ، مؤلفات النثر ، صفحة ٣٠٦ .
(٤) الموت هنا بالمعنى الذي قصده هيراقليطس في وصف المأساة الوجودية : « كلنا يعيش الموت ، وكل منا يعيش ميتته » .

المعقول ، والمعيار الفلسفي الامثل لتكامل الانسان .

الانسان يحيل للزمان افعاله ، وكل ما يكوّن وجوده الفانـــي بطبيعته الخالدة . وهذا التوافق يتم بواسطة العـواطف المحسوسة ، عندما يصبح الانسان بصيرا بقيم الجمال ، والنضج ، والمواجهـة ، والتخطي ووجوبه ، بحيث تتشرب ذاته القدرة على الاندماج بالزمـان فلا يسلبها شيئا ، بل يمنحها كل شيء .

لقد اختزن الشعر العظيم دائما قواه من مبدأ تجـديده معايير تلك القيم ، بواسطة خلقه قيمه الخاصة ، محطما الطرق والمنـاهج المألوفة (٥) ، هنا سر ديمومته المعافاة . وبانتقاله الدائم مـن طرق مواضيع استنفدت ، الى مواضيع بكر ، كان ينتقل بالروح الانسانية أبدا ، من تنهدات التشوّف ، الى آفاق لمّا تُرَ . حتى اذا ظهـرت معالمها ، اركب الناس أراجيح الانخطاف من جديد ، وراح يطرق معهم جوانب من وجودهم الكوني الكبير ، هكذا الى ما لا قرار ، خالقـا غنائية جديدة ، مستقبلية الارهاص ، توحي بالحب الكوني حين تنتظم انغاما ، وتحمل على التجاوز حملا ، حين تبحث عن معنى في قـدرة الموت ، وعن معنى آخر في حتمية الحياة . وبكلمة اخرى : يمـوت الشعر عندما لا يوظف طاقاته في عملية الاصغاء لهدير ينابيـع الوحـي الخلاق ، الكامنة في الشعب . قلت عندما لا يساعد على تفجيرها ، حتى عبر الظلمات الموحية بالحزن والتعب الكبير (٦) .

وبمقدار ما كان الشعر يلتصق بالحياة ويستبطنها ، كـان يتحمـل مسؤوليته الاخلاقية بالنسبة للتسامي بالروح الانسانية ، والجماليـة بالنسبة للفن ، فالشعر المتسامي بالروح الانسانية ، وبالفن ، يتصف بنكهة مأساوية من حزن وتعب كبيرين ، الحزن الكبير ينبع والفـرح الكبير من منبع واحد . لكنه يتقدمه لكي يبقى دائما محتفظا بشرف السبق في شق الدروب ، واستصلاح الاراضي البكر ، عنيت : حب الحياة ، جعلها تحب .

اذن التسامي بالروح الانسانية لم يكن الا بازاء الالم والمـوت ، عندما يبدأ الجهد البشري بمحاولة اختراق عقليات القـوى الخارجيـة المحيطة به . هنا تبدأ معجزة الذات الانسانية (٧) ، ذلك لان التسامي لا يكون الا في الانسان . الانسان وحده ينطوي على وظيفة خلاقة ، متسامية ، مندغمة اندغاما عضويا بطبيعة الحركة الصادرة عنه ، قلت: عمله من اجل تطوير وجوده ، وما انبثق وينبثق عنه من ادوات وقيم ، كانت تشكل بحد ذاتها ، وبما يضفي عليها الانسان من صقل دائـم ، معالم الفن من : خط وايقـاع ، وتهويـم ، وايمـاء واصـوات ، وجدت لها جميعا تعبيرا اخيرا لا آخرا ، فـي الشعر ، هذا الصوت المنبعث من الانسان ومن الزمان معا .

يقول بول ايلوار :

« هيجان البحر يقع على ماء صامت ، دون ان يلهبه ، ولكـن ليضيئه اكراه اللحم ، جعله هينا مشتركا . ان تحب وان تحب يعنـي الرغبة في تخطي الطبيعة بأي ثمن ، والـذهاب الدائم بسرعة نحو الخلـق .

« ليس ثمة غد للصاعقة . الصاعقة انما هي مستقبل اليـوم . في لحظة الحب ، كل شيء ينوجد ، وكل شيء ينفقد تماما . الانقباض انما هو غوصة متسامية في العدم .

ولكنها ولادة في السلسلة الابدية للولادات الاولى » (٨) .

هذه الابيات التي تحمل معنى العشق حملها معنى الحب السامي ، لتشكل التفسير الرائع لوظيفة الخلق الشعري . ففي الحب يجـد الشاعر هويته الذاتية في التنوع ، ويجد الانفعال في الاتصال ، والمتعة في الالم ، والموت في الحياة ، واستحـالة تجميد حركة الزمان ، واخفات صوتها ، كما يجد جدلية الواقع الراهن المستحيل ، وجدليـة المستقبل الممكنة ، هذه الجدلية التي يقابل فيها الانسان الزمان ، الانسان الصوت ، أي اللحظة اللاعضوية المتحولة الى حركة ، تتنفس بالوجود ، بقسم منه قابل للهضم واللفظ .

هكذا انتقلت عملية التسامي بالروح الانسانية من البسيط الى المركب . الانسان الزمان أصبح الانسان التاريخ ، والانسان الصـوت اصبح الانسان الكلمة .. الكلمة في عملية اندراجها في مساق كلمات انشحنت بعاطفة ، لم تكن مجرد اهتزاز شعور وأحاسيس وحسب ، وانما كانت بالضرورة ، تجربة تأكدت بتجارب اخرى ، انتقلت بالانسان التاريخ ، والانسان الكلمة ، الى الانسان المجتمع والانسان الصـورة عبر ما وعت ذاكرتها العامة من تجارب ورؤى .

على هذا النحو اكتنز الشعر من مبدأ الحضور الانساني المنفرد بخاصة معرفة ذاته ، القادرة على تجسيد الصوت والكلمة والصورة ، في ما هو جنيني ، واخراجه بالتالي مطبوعا بهوية معينة . فكـان واقعا ومصيرا في وقت واحد .

كان واقعا بصفة كونه المعيار الفاصل بين الانسان وبين قدرتـه في تجاوز ذاته . وكان مصيرا بصفة كونه المعيار الفاصل بين المـوت وبين السكون . وكان انبعاثا : ثورة تتجمع عواملها من كل ما هو حي ، ويحمل في طبيعته الرغبة والقـدرة عـلى الاستمـرار في الحيـاة . المستحيل هنا في تحركه عبر المطلق ، يولد صورة ما هو ممكن ، ومـا ينبغي ان يكون .

الصورة اذن هي الشعر . والشاعر انما هو الكائن الذي يخلـق سببية هذا الانبعاث الجديد . والممكن فيه انما هو مبدأ الحركة الحتمي، الثورة المناقضة للسكون والموت ، وما ينبغي ان يكون ، هو صـورة التغلب عليهما .

فكيف يتحصل لهذه الصورة الشعرية ان تمارس دورها في عملية التسامي بالروح الانسانية ؟

اذا أدركنا ان الشعر يدلنا على طرق للفهم جديدة ، أدركنا ايضا ان الصورة الشعرية انما تسمر وعينا واعيننا في صفحة الذاكرة داخل

---

(٥) المثال على ذلك : شعر المتنبي وأبي العلاء المعري عند العرب ، وشكسبير عند الانكليز ، وغوته عند الالمان ، وبوشكين عنـد الروس ، وهوغو عند الفرنسيين ، وسواهم .

(٦) يقول مایاكوفسكي : ينبغي على الشاعر ان يكون وسط الاشياء والاحداث . ان معرفة نظرية الاقتصاد ، ومعرفة الحيـاة الحقيقية ، والنفاذ الى التاريخ هي بالنسبة للشاعر اهم من الكتب المدرسية الصغيرة التي تقدس المبتذلات ـ شعر ونثر ، ص ٣٦٣ ـ .

(٧) يقول جوفراي : « ان الفكرة الاساسيـة للتسامي انما هي النضال . انها فكرة القوة بوجه من وجوهها . القوة الحرة والمدركة ، والمناضلة ضد العقبات التي تعرقل تطورها ـ دراسات في الجمالية ـ .

(٨) بول ايلوار : مسارب الشعر ودروبه ، ص ٧٩ ـ ٨١ .

ذواتنا وخارجها . فاذا ما اتفق لها ان تقوم بالامرين معا اكتمل لهـا سر الابداع . ولكي تمارس الصورة الشعرية هذا الدور ، عليهـا ان تستقيم داخل اطار قوامه الكلمات ، اللغة القادرة على استحضـار ما هو مرئي ، واستحضار طريقة للرؤية جديدة ، تتاح بواسطتها اقامة الحوار بين الانسان والعالم ، وبين الانسان ونفسه على السـواء : أي ان يدرك الانسان من خلال الشعر وبواسطته أشكال وجـوده ومعاني صيرورته .

بهذا يكون موضوع الصورة الشعرية : الانسان ، تتسامى به من خلال جعله يدرك انه موجود وجودا مندغما بسواه وبما يحيط بـه ، وغير منفصل عن تاريخه ، عن اخلافه ، عن اطار وجوده العام ، وانه غير منفصل عن هذا الوجود الذي لا يمكن تصوره وجودا متقـدما متحركا بدون الانسان .

والشعر باصراره على هذه الوحدة ، انما يصر على العلاقة التي تنشأ بينه وبين الناس والاشياء . فالشاعر ، كل فنان ، يستخـدم أداة للعمل : الكلمات بكل ايقاعاتها ومعانيها ، ووقعها ، ومجازاتها ، بحيث تصبح اكثر من معنى ، بما ينضاف اليها من صفات ونعـوت واحجام واحكام ، تجعلها ، في النهاية ، جسر علاقة بين الشـاعر والقارىء ، يقوم على اساس من التجربة الانسانية ، ويتقوى بمـا يدخل في لبنته من معاناة .

ولعل اهمية الشعر هنا في السمو بالروح الانساني انه ، عبـر استخدامه ، يجعل تحت التصرف ما هو اكثر من الكلمات المنتظمـة سطورا ، وأبياتا ، ومقاطع . انه يمد الناس بمجموعة من الافعال ، من مثل نبرات الصوت ، وحركات عضل الوجه ، وايماءات اليـدين والجسد ، وهي جميعا مما يجد له تمائلا ومحاكاة لدى السامعيـن والمشاهدين ، بحيث لا تكون مجرد حركات ونبرات وايقاعات وحسب ، وانما تشكل ، في هذه الحال ، تاريخا ، لا بالمعنى المألوف ، بل بصفة كونه استبطانا للماضي ، وتقويما للحاضر ، واستشرافا للمستقبـل اكثر وضوحا وعطاء . وبوصفه القرينة الموجبة الدرس ، بما تحمـل من تناقضات ، وقل : الجوهر المعبر عنه عبر عصور التخيل الخلاق .

ان كل مقطع ، كل سطر من هذا الشعر ، لعلى علاقة عضويـة بذاته وبمفرداته ورؤاه . وكما ان كل مرحلة من التاريخ على علاقـة بذاتها ، ولا يمكن فهمها بعمق ووضوح ، الا من خلال الاحاطة بهـا ، كجزء من وحدة متكاملة ، كذلك شان المقطع من الشعر الكبير ، عنـد تمام مؤداه ومبناه ، وهو لن يتم التمام كله ، لان التاريخ لن يتـم ، ولان الناس الذين يوعي منهم وبغير وعي ، يصنعون التاريـخ (٩) ، يتبدلون ويتحولون عبر علاقاتهم الجدلية ببعضهم البعض ، وبالواقع ، ويستمرون في البقاء اعضاء في المجموعة الكبرى ، يرتقون بالحـوار ، ويصنعون الواقع على النحو الذي تتخمر فيه وتتفتح بـذور المستقبل المنشـود .

بهذا المعنى نستطيع القول بأن الشعر قد أسهم اسهاما اساسيا في تطوير الذات الانسانية . ذلك لان جوهر طابعه الذي يضفي عليـه معنى اخلاقيا هاما ، اعمق مما هو ديني (قـديما وحديثا) قلت : وجودي existentiel يبرره حد اعلى من النفاذ الانساني فـي السيطرة على الواقع .

فعندما يضع الشعر الانسان ، وطاقاته ، وسط مشاغله وهمومه ، وعندما يؤنس هذه الهموم ، فهو انما يحمل على اطراح كل وجهـة ، او نظرة تتحرك خارج حركة الطبيعة والانسان ، خارج التاريخ المتحرك بعفوية ، وبجهد الانسان . وهو بالتالي يحمل على اطراح كل فكـرة تنطلق من مفهوم الجمال المثالي ، لانها سكونية ، ومنفصلة عـن الاحتمالات ، وعلى نبذ الفردية بصفتها هدفا مطلقا ، ونبذ الفنـائية لمجرد كونها التبرير الوحيد للفعل الجمالي ، وهذه جميعا مما يتصل بالماضي المستكين على ما بلغ ، وعندئذ لا يكون الشعر مجرد انعكاس لما هو سحري في الافكار الانسانية ، بل يكون جؤجؤ السفينة الـذي هو أول من يغالب الموج ، وأول من يبشر بالافق الجديد الذي « تؤرخ به مرحلة من التاريخ ، سيعرف الناس من خلالها ، ومعهم كل فروع نشاطهم ، تقدما يطرح في أعماق الظلمات كل ما تقدمه » .

من هذه الاصالة الشعرية ، وتجاهها ، تسقط البدع التي لا تعدو ان تكون شطحات ضياع ، وارتدادات نكوص ، باسم التجاوز تارة ، وباسم الصوفية والرفض والبحث عن المجهول تارة اخرى ، وهي لو علم اصحابها متاهات تفتح بوجه الانسان ، لا لتجعله اكثر فاكثر سيـد مصيره ، بل لتطرحه أشلاء ممزقـة في بحر اشكـال الكيميـاء الضبابيـة .

فعندما نتكلم ، نحن الشعراء ، باسمنا ، وباسم الكثيـر مـن الاشياء الاخرى التي تتجاوز ذواتنا ، وباسم من يحيط بنا ، وباسم العناصر والاشياء ، وباسم هذا المجهول الكوني الكبير الذي نطرقـه حينا ، ونتوغل فيه حينا آخر ، فنحن انما نتكلم باسم ما هو واع ، وباسم ما قد يؤول اليه ، وهو ما يضفي على الوجود ، وعلى الحياة ، لونا مـن البهجة المأساوية ، ويطبع حركـة الواقـع بطـابـع اللحظات التحولية الكبرى في عمر الانسان .

بيـروت — **ميشال سليمان**

صدر حديثـا

عذابات احمد بن ماجـد

للشاعر البحريني

يعقـوب المحرقي

* * *

هنا الوردة .. هنا نرقص

للقصاص البحريني

امين صالـح

منشورات دار الآداب ـ بيـروت

بالاشتراك مع اسرة الادباء والكتاب في البحريـن

---

(٩) كارل ماركس .